الحياة الأدبية فى الحجاز

نهضة النثر

للأستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم

أثرت العوامل الثقافية والقومية والسياسية فى النثر الحجازى كما أثرت فى الشعر ، فتخلص من قيود القديم ، ولم يعد الآن بين الكاتبين فى الحجاز من يصب على قوالب الأقدمين فيطرب للمحسنات أو يتحرى موضوعاتهم فى العتاب والشكوى والمقامات .

وإنك لتعجب لهذا الانقلاب السريع الذى طرأ على النثر الحجازى ؛ فإنهم استطاعوا أن يغيروا اتجاهه فى فترة قصيرة من الزمان ، ولعل الذى سهل لهم هذا الطريق هو ماسبق أن قررناه فى الشعر من أن الأديب الحجازى وجد نفسه — منذ أن تفتحت أمامه سبل النهضة — متخلفا عن الركب العربى فدفع بنفسه دفعة قوية آملا أن يصل إلى أقصى الغايات . ثم إنه وجد أمامه طريق التجديد سهلة معبدة قد سلكها غيره من أدباء مصر والشام والمهجر فلم يتعثر طويلا فى الطريق التى تعثروا فيها قبله وصاح صيحة قوية فى وجه التقليد ودعا فى حرارة وشغف إلى التعلق الجديد ومن قول عواد فى ذلك : « إذن فما لنا نرجع إلى الوراء حتى فى الأدب ؟ ! جناية جناها على أفكارنا وأقلامنا الأقدمون نطأطأنا لها الرءوس .

كفى يا أدباء الحجاز ، ألا نزال مقلدين حجريين إلى الممات ! أقسم لولا حركة عصرية فى الأدب قائمة الآن فى الحجاز بهمة نفيف من أحرار الأدب العصرى ، لما عرف العالم شيئا فى الحجاز يدعى الأدب الصحيح ...

وفى الحجاز الآن مدرستان للنثر تقابلان مدرستى الشعر ؛ إحداهما متئدة وهى متأثرة أشد التأثر بأدب مصر والشام ، والثانية مجددة عنيفة فى التجديد وهى متأثرة بأدب المهجر . وكان طبيعيا أن تقوم هاتان المدرستان فى النثر بجانب مدرستى الشعر لاختلاف المصادر التى يستقى منها التجديد أدباء الحجاز وانقسامهم فريقين يختار كل منهما ما يحلو له وما يتفق واتجاهه . ولعل سبب آخر لعله أوضح من سابقه فى ظهور هذين الاتجاهين فى الشعر والنثر معا وهو أن التخصص لم يظهر بعد ظهورا واضحا عند أدباء الحجاز فأكثر الأدباء عندهم شعراء وكتاب وخطباء ولو أننا عددنا كاتبين كالسباعى وزيدان لم يحاولا الشعر ولم يحفلا به لوجدنا بجانبهما عشرات من الكتاب الشعراء فعبد القدوس والنقشبندى وعلى حافظ ومحمد سرور وغيرهم يكتبون ويشعرون فكان طبيعيا أن تظهر نزعاتهم الشعرية فى نثرهم وأن ينهجوا منهجين فى النثر كما نهجوهما فى الشعر .

والنثر الجديد فى الحجاز يحمل طابع الشعر وخصائصه : ففيه خياله الفياض وحماسته المتدفقة ، وفيه التعبير عن العواطف والأحاسيس حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ نثر المجددين منهم أنك أمام شعر شاعر قد تزاحم خياله ودقت عواطفه ؛ فساق إليك المعانى فى صور من الخيال مؤثرة ، ولا تلحظ من الفوارق بين شعرهم ونثرهم إلا أن الأول موزون ، والثانى غير موزون . فتأمل قول « عزيز ضياء » فى قطعة عنوانها « وطنى » . .

أنت ياوطنى ينبوع تدفقت منه أنوار المدنية والحضارة والعلم.

من رواييك وربوعك ، من جبالك وسهولك ، من صحاريك وقفارك تعالى فيك صوت الدين الإسلامى الحنيف فسمعته الإنسانية ؛ فاستيقظت فيها مواضع الإحساس وانبعثت فيها روح الحياة .

منك يا وطنى انبثق الفجر الذى بدّد ليل الهمجية والوحشية الذى ظلت تتخبط فى دياجيره الإنسانية قرونا طوالا .

يا وطنى يا مهبط الوحى ومشرق الإصلاح .

يا منجم الأبطال الخالدين ومنبت العباقرة النابغين

يا مهد الحرية والعدالة والمساواة .

يا مهد طفولتى السعيدة ، يا من استقبلت فيه وجه الحياة وعرفت فيه معنى الوجود .

يا جوهرتي الغالية يا كنزي الثمين ، يارمز مجد العالم ، ياشارة فخر الإنسانية .

أحبك ياوطني .

أتفانى في حبك كما يتفانى الفراش في النور .

يلذ لي أن أحترق بخورا في مجمرة الواجب الذي على نحوك .

من ثدي أمي رضعت لبان حبك .

من حرارة شمسك استمددت حرارة إخلاصي .

من صفاء جوك اكتسب الصفاء ضميري .

وسأظل يا وطني .

سأظل وفيا مادامت لبان أمي تجري في دمائي .

وستظل حرارة إخلاصي ما دامت حرارة شمسك .

وسيدوم صفاء ضميري ما دام صفاء جوك .

أحبك يا وطني ... ... الخ »

إلسنا نرى في هذه القطعة من الخيال وطريقة العرض ما يحملنا على القول بأنها شعر منثور قد توافرت فيه خصائص الشعر في المعاني والأخيلة والأساليب وطريقة الأداء ؟ !

وقد يكون هذا الإمعان في الخيال ناتجا من عدم تخصص أدبائهم في صنعة من الصناعتين ، وقد يكون راجعا إلى قراءتهم أدب المهجر ، فإنك لا تكاد تظفر بكاتب من كتاب المهجر لا يقول الشعر ، بل إنهم ليحاولون دائما التقريب بين الشعر والنثر : فيخففون من قيود القافية ويتحررون من التزامها ، ولكنهم في النثر يكررون بعض الجمل ويلتزمونها بل إنهم يسجعون أحيانا لا لأنهم يريدون السجع ولكنهم يرون مثل هذا في قافية الشعر فيريدون التقريب بينهما لتزول الفوارق .

وهذه الظاهرة يجدها القارىء لنثر الحجازيين فهم خياليون في نثرهم ، وهم يتخيرون الألفاظ الموسيقية التي تشبه ألفاظ الشعر وهم فوق هذا وذاك يطرقون به أغراض الشعر العاطفية التي تتدفق حماسة وقوة . وهم كثيرا ما يفصلون الجمل فصلا كأن كل جملة من جمل النثر بيت من أبيات الشعر غير متصل بما بعده في تركيبه وإن اتصل به في معناه .

ومن الأمثلة الحديثة في نثر الحجاز ما كتبه « حسين خزندار » بعنوان « ذراع الجبار » وقد أراد في كلامه أن يصور بطولة جندي جاهد في سبيل الواجب حتى قتل فهو يقول من كلام طويل :

أرأيت تلك السهول الفسيحة ؟

فهناك في تلك الأكمة الخالدة .

وهناك حيث التضحية والشهامة .

تثوى عظام الجبار الخالد .

فهي رمز البقاء الدائم .

تنادي من أعماقها :

الحرية أو الموت .

* * *

تعالى يا فتاتي ولننشد نشيد السعادة .

مرددين مقطوعته العذبة .

الحرية أو الموت

فالحياة بدونها كابية كئيبة .

والحياة بدونها موحشة قد ارتدت سلاب الحزن .

فهي سر الحياة كالأرواح .

ومنبع الإحساس في نفوس الأباة .

فإما الثريا وإما الثرى .

* * *

ولسنا نريد من هذا الكلام أن نقول : إن كل كتابة في الحجاز تتبع الطريقة التي ذكرناها فإن المدرسة المتئدة تتأثر أدب مصر والشام فتتحرى الدقة في التعبير وتحاول أن تخاطب العقل أكثر مما تخاطب العاطفة في كلام مترابط متسلسل يتبع أساليب المنطق ، وقد رأينا من هؤلاء الأدباء « عبد السلام عمر ، وأحمد العربي ، وعلي حافظ ، وزيدان ، وأمين عقيل ، وعنبر وغيرهم » .

أما أحمد سباعي وهو أثبت الناثرين قدما في الحجاز وأقواهم قلما فإنه يتبع المنهاجين ويسير على الطريقتين ، فتارة يكتب كما يكتب أدباء مصر وأخرى يسير كما يسير أدباء المهجر في عرض.

الموضوع وطريقة الأسلوب ، ومثله في طريقته الشيخ سرور الصبان .

قال السباعي من قطعة له بعنوان « حذار أن تكون ضعيفا » .

« ما رأيت كالقوة منعة تحصن جانب المرء وتعزز مكانته وتحفظ عليه كرامته ، وإنه يخيل إلى أن البسيطة بأهلها وأهلها بقواعدهم اصطلحوا على احتقار الضعيف وأطبقوا على الإستهانة به والسخرية منه ، فحذار يا صاحبي ، حذار أن تكون ضعيفا .

شهدت ضعيفا يدلج في أحد الشوارع وعاصفة من الصفير تدوي في أذنه وكوكبة من الأطفال تعبث به ، فقلت هو الضعيف ويله من الصغار والجهلاء !

وشهدت آخر تكالب جمع غفير على إيذائه ، هذا يصفعه ، وذاك يتخطى ظهره وغيره يدفعه ليغريه بالرقص واللعب ، وكانت زفرات المسكين تتصاعد فتتلاشى في ضحك الضاحكين وقهقهة الصاخبين ، فقلت هو الضعيف ويله من غوغاء الشوارع وأوباشها ! ...

ويقول :

وسمرت ليلة في جمع من أرباب الحجى وذوي الفضل ، فتصدرنا ضعيف أخذوه بيده إلى أرفع مجلس فأوهموه العظمة وراحوا على حساب ذلك يتغامزون ويعبثون . ومضت ليلة حسبت صاحبي سيقضي في نهايتها كمداوهما ، فقلت هو الضعيف ويله من أبناء الحياة صغارهم وكبارهم وغوغائهم وأشرافهم ! !

فحذار . حذار ياصاحبي أن تكون ضعيفا ... »

ومن هذا الكلام تستبين تأثر الكاتب بطريقة المنفلوطي كما تستبين حماسته التي استفادها من أدباء المهجر

والشعر الحجازي لا يزال أقوى من النثر ، ويظهر أن هذه حقيقة مقررة في كل أدب ناشيء ؛ فإن الشعر دائما في بداية النهضات يطغى على النثر حتى إذا ما توافرت أسباب النهوض ونمت دوحة الأدب تقدم النثر لاهتمام الناس به وتأخر الشعر عن منزلته شيئا فشيئا ، وقد حدث مثل هذا في نهضتنا المصرية في العهد الحاضر .

ويعالج النثر الحجازي في الغالب الكثير النواحي الإجتماعية : فهو يتناول النواحي الخلقية يحاول إصلاحها وهو ينتقد ضعف الشباب وعدم طموحه ويرسم له المثل العليا ، وهو يتحدث عن المرأة الحجازية ليقوى مكانتها الإجتماعية فتصبح أمّا صالحة تستطيع أن تربي أبناءها وتأخذ بأيديهم إلى طريق الفلاح وهكذا ... وهو يسوق ذلك كله في طرائق مختلفة ، وأظهر تلك الطرائق التهكم من الحالة الإجتماعية القائمة والعرض القصصي والأسلوب الخيالي .

أما القصة المصرية عندهم فلا تزال مجهولة وذلك لأن إتقان القصة يحتاج إلى زمن طويل يتملأ فيه الأدباء مناهج الغربيين ويعرفون طرائقهم فيها ، وإذا كانت مصر إلى الآن لا تزال متعثرة في فن القصص مع أنها بدأت تترجم هذا الفن عن الغربيين منذ عهد إسماعيل فما بالك بالحجاز ونهضته لا تعدو ثلاثين سنة .

نعم ، لقد بدأ بعض الحجازيين ممن يعلمون اللغات الأجنبية يترجمون بعضا من الأقاصيص الأوربية وينشرونها في مجلاتهم ليربوا الذوق القصصي في البلاد ، ولكن هذا العمل لا يزال في البداية وسوف لا تظهر ثمرته إلا بعد وقت طويل من الزمان .

أحمد أبو بكر ابراهيم

إعلان

وزارة الزراعة تشهر للبيع بالمزاد حوالي ٢٫٥ طن بذر خروع (تحت الزيادة والعجز) موجودة بتفاتيش سخا ومحله موسى وسدس وشندويل والمطاعنة بالجلسة التي ستعقد بديوان الوزارة يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٤٥ فعلى راغب الشراء معاينة الصنف بمحل وجوده قبل الجلسة وتطلب الاستعلامات والشروط من التفاتيش المذكورة أو من الوزارة (قسم الزراع) ٤٣٦٠